# أزمـة حكومـات أم أزمــة شعـوب؟

فيحاء استيتية(*)

## أولا: الأزمة العربية الراهنة

إن الحكومة، أية حكومة فى أى زمان وعصر ومكان، هى عبـارة عـن قمـة المكونات السياسية والتنظيمية لأى بلد ولأى شعب. وقد نوه القرآن الكريم والأحاديـث النبوية فى أكثر من مكان للعلاقة بين الحاكم والمحكوم: **﴿كما تكونوا يولى عليكم﴾** و"لا يولى عليكم إلا منكم". فالمجتمع المريض لا ينتج إلا حكومات مريـضة. فكمـا يقـول المثل: "الأعور بين العميان ملك". ولا شك أن ظروف القهـر والحرمـان، وظـروف الاستبداد والغزوات التى مرت على بلادنا عبر القرون ــ باعتبارها منطقة وسط فـى العالم بحكم موقعها الجغرافى. هذه الظروف مجتمعة إذا ما أضفنا إليها التقدم العلمـى فى وسائط النقل البحرية، التى وصلت إليه الدول البحرية هذا التقدم وما أدى إليه مـن تضاؤل الأهمية الاستراتيجية لموقع بلداننا على سطح المعمورة، خاصة بعد اكتـشاف رأس الرجاء الصالح الذى حول طريق التجارة العالمى عـن بلادنـا إلـى أفريقيـا، واكتشاف كروية الأرض الذى أثبت علميًا أن الإبحار غربًا يوصلنا إلى الشرق والعكس صحيح. كل هذا الظروف مجتمعة أفقدت منطقتنا أهميتها المركزية الاسـتراتيجية فـى الإبحار بين الشرق والغرب.

وبسبب غياب العرب عن هذه الاكتشافات كلها أصبحوا يسيرون فـى المـؤخرة وتخلوا تدريجيًا عن دورهم الريادى، أضف إلى ذلك العامل الـدينى الرومـانى الـذى يطلب الحلول للأمور المستعصية من السماء والاعتماد على القضاء والقدر فحتى الآن لم يبحث العرب كدول ولا كشعوب ولا كمؤسسات وصناعيين وتجار فى كيفية معالجة تخلفهم ولم يعرفوا الطريق إلى ذلك. ولم يحددوا الأسباب والعوامل التى أوصلتهم إلـى ما هم عليه. والتقصير الأكثر وضوحًا هو تقصير النخب المفكرة، فالنخب العربية لـم تتحول إلى تيارات فكرية كما حدث فى أوروبا وأمريكا. وإذا استثنينا التيارات الفكريـة

---

(*). كاتبة وناقدة وروائية سورية.

الدينية لم يظهر فى بلادنا تيارات فكرية نستطيع أن نشير إليها كتيارات فكرية محلية، فالتيار القومى جاء تقليدًا للقوميات الأوروبية. القومية الألمانية، والإيطالية، والفرنسية... وجاء متأخرًا بعد أن تجاوزت الشعوب الأوروبية المرحلة القومية والتيار الماركسى الذى لم يلاق قبولًا بسبب الانتماء الدينى المتشدد لإنكار وحدانية الله فى بلادنا "إن الله يغفر كل شىء إلا أن يشرك به" هذه كان رد الفقهاء على الماركسية.

فالنهضة التى حدثت فى الغرب منذ القرن الرابع عشر كانت ظروفها البيئية الدينية مؤاتية أكثر بسبب ترهل الدين المسيحى وبلوغ الكنيسة سن الشيخوخة إذ سبقت الإسلام بستة قرون فظهرت تيارات فكرية قومية وليبرالية واقتصادية وماركسية.. انضوت معظم فئات الشعب تحت ألويتها واستطاعت هذه الكتل أن تتحدث بصوت جماعى وتتحرك بقوة وعنف نحو ما حققته نخبها المفكرة كأهداف فقوضت ممالك وهزت عروش ووحدت إمارات فى وقت كانت الشعوب الإسلامية وحكوماتها ترقد فى سبات عميق واستيقظت مذعورة عندما طرقت الجيوش الفرنسية أبوابها بعنف على سواحل مصر بقيادة نابليون. ولا تزال حائرة كلما قامت بعمل وحاولت أن تقطع شوطًا تواجه ظروفًا دولية ومحلية وبيئية غير ملائمة فتعود إلى نقطة الصفر، ومعلوم أن البداية دائمًا من نقطة الصفر لا تحقق إنجازًا وتقدمًا مستمرًا.

ولا شك أن ظروف القهر والاستبداد التى توالت على شعبنا قرونًا عديدة، قد خلقت لديه ثقافة النفاق السياسى وتفنن ثقافة شعبنا وأئمته ومشايخه فى هذا النوع من الثقافة المرضية حتى أصبح النفاق والكذب أحد طباع العرب المميزة وتجذرت بأساليب متعددة، وساعد على نموها غياب العلم وطرائقه العلمية من جهة، وتغطيته بفتاوى واجتهادات دينية من جهة أخرى. ولا شك أيضًا أن العديد من ساستنا وحكامنا قد ضللهم تصفيق الجماهير، وجعلهم يعتقدون أنهم رجال دولة ودهاقنة سياسة وغشاهم مرض النفاق السياسى والكذب على جماهيرهم، وساعدوا على الفرقة بين الطوائف والملل ورحبوا بالفتن وأذكوا سعيرها ليسهل عليهم إدارة البلاد وحكم الشعوب. وأيقنوا أن كل الرذائل تصلح لشىء ما -كذلك الإنسان الذى صدرت عنه- وأن أسوأ الرذائل ليست بهذا السوء إذا أدرك الإنسان ما يريد منها. لذا صار مرحبًا بالرذيلة التى يمكن الاستفادة منها وأصبح مرحبًا بالحكام الأكثر بعدًا عن الفضيلة لأن الطريق للوصول إليهم أسهل ونشأ نوع من التحالف غير المعلن بين حكام سيئين وبطانة من المشرعين

وأصحاب الفتاوى المتخلفين ذوى المصالح الخاصة تتبادلان الدعم والمنفعة. فالحاكم الضعيف الذى ليس بمقدوره تقديم شيء ذى فائدة لشعبه انتفع من هذه البطانة التى قدمت الفتاوى والتشريعات له بأن ما يفعله يرضى الله والدين، وساعدها على ذلك وجود شعب متدين وجاهل. وأمن هذا الحاكم لبطانته الحصول على منافع خاصة ومكاسب لا حصر لها فأدى هذا إلى كثير من الفتن والحروب الداخلية وإرسال الجيوش بحملات تأديب وتنكيل وأطلقت أيدى القادة والأمراء للحصول على مكاسب خاصة أيضًا على حساب الشعوب المنهكة أصلًا فأدى هذا وما نجم عنه من تمرد بعض الأمراء والإيقاع ببعضهم لدى الحاكم إلى تجزئة البلاد العربية إلى ولايات صغيرة ازدادت استقلالًا كلما بعدت عن مركز الدولة أو كلما لاقت نصيرًا أجنبيًا يدعم موقفها.

وإجمالًا: حتى النخب الواعية القليلة إن وجدت فوصلت ــ نتيجة واقع الحال ــ إلى قناعة مفادها أن القوانين والعادات والأعراف التى معظمها جائرة بحكم نشوئها فى ظل حاكم جائر ومشروع انتهازى. فوجود حاكم أو أمير يلتف على هذه القوانين ويطبقها. بشكل اعتباطى ويقبل الرشوى والهبات لتجاوزها أفضل من مجيء حاكم يلتزم بهذه القوانين ويطبقها، عمومًا وبشكل مجرد ستصبح هذه القوانين أكثر جورًا فكما يقول المثل الشعبى: "الشعب الفاسد يحتاج إلى قاضٍ فاسد ومرتش" لاسيما وأنه ليس بمقدور أحد أن يتطرق إلى تبديل هذه القوانين جذريًا فى مجتمع راكد لم تتبدل مؤسساته عبر مئات السنين. لأنها رغم كونها قوانين جائرة قد استقرت مع الزمن وسادت وحازت على نوع من القبول الشعبى لدى فئات كثيرة وأحيانًا حازت على نوع من التقديس الدينى، خاصة ما يتصل منها بالعبادات. لدرجة أن الشرطة كانت إذا قبضت على شخص مفطر فى رمضان تسجنه حتى ينتهى رمضان. ومثل هذا الإجراء كان يحوز على رضى العامة حتى إذا كان هذا الشخص من دين آخر أو لديه سبب يحل له الإفطار، وبالتالى كان لتبديل هذه القوانين بشكل جذرى الكثير من المخاطر أقلها الفوضى التى لا يرضى فيها لا الحاكم ولا المحكوم.

وهكذا انغلق المجتمع واستبد الحكام بكافة فئاته. وما أسهل الاستبداد على شعب مغلق ومتخلف، وأصبحت أشكال الحكم فى معظم الأقاليم العربية وراثية يتناقلون السلطة ضمن الأسرة الواحدة ملوكًا كانوا أو مشايخ أو أمراء أو رؤساء جمهوريات. ووجدوا فى منافقى الشعب ومشايخه ما يؤيدهم أو يفتى لهم بأن حكمهم ناجم عن

الشورى التى أمر بها القرآن ونبيه. والويل لمن راودته نفسه أن يطرح نفسه بـديلًا أو يلوح بعدم شرعية هذا الحاكم أو ذاك. وقد وجد المشرعون فى القـرآن وفـى سـيرة السلف الكثير من الآيات والأمثلة التى تفننوا فى تفصيلها لتلائم مقاس الحاكم مثل ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ فمن الذى سـيحدد هؤلاء العباد الصالحين؟ ومن له مقام شعبى واجتماعى؟ ومن يستطيع ولديه ما يؤمن له الظهور بمظهر الصالحين على العامة غير الحاكم؟ أو غير الأمير؟ أو نجل الرئيس؟ أو شقيقه؟ وما إلى ذلك من العبادات الفضفاضة التى إذا نقدها أى امـرئ يعلـو صـوت المآذن والخطباء والإذاعة والندوات والمؤتمرات ليصفه، إما بـالكفر أو بالتـآمر مـع العدو.

ـ لقد ظهر تيار القومية العربية فى بداية القـرن العـشرين ينـادى بالقوميـة العربية. وكان الظرف يستدعى بأتباع التيار القومى أن يحاربوا بنى دينهم العثمـانيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد العربية، وساعدت الدول الأوروبية على إذكاء الروح القومية لدى العرب خاصة فرنسا وبريطانيا لأنها كانت فى حرب مـع الإمبراطوريـة العثمانية التى هى حليفة عدوهم ألمانيا. وتصادف فى ذلـك الظـرف أن الكثيـر مـن أصحاب الأقلام والمتنورين العرب الذين تلقوا تعليمهم فـى أوروبـا واطلعـوا علـى منجزاتها الحضارية كانوا من العرب المسيحيين.

وكعادة أى سلطة ضعيفة تخون وتكفر كل من ينطق بكلمة حق لا تـتلائم مـع مصلحة الحاكم واتباعه وحاشيته استنهضت للسلطنة العثمانيـة الـروح الدينيـة روح الإسلام فانبرى المفكرون الإسلاميون بعد أن استعانوا برموز التيار الدينى- الـشريف حسين شريف مكة وحاشيته- الذى تعاون مع القوة الأوروبية التى ناصـرته وأيدتـه- فرنسا وبريطانيا- والتى كانت قد قسمت أراضى السلطنة العثمانية كمناطق نفوذ. وأدى هذا إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية ذات التيار الدينى الإسلامى أولًا وسقوط الجنـاح القومى ذى التيار الوطنى ووقوع أقطاره تحت الاحتلال الأجنبى مباشرة.

وفى بداية القرن ظهر التيار الماركسى كتيار راديكالى عالمى يطالـب عمـال العالم بالثورة وتشكيل أحزاب عمالية لها لتقودها. وفى مثل هذه الظروف لم يكن ينقص الشعوب العربية التى لها احتكاك مباشر مع أوروبا مثـل سـوريا والعـراق ومـصر وفلسطين إلا الحزب إلى جانب الحقد الموجود والشعور القومى الملتهب لتصنع ثورتها

فئات من المفاهيم الماركسية كى لا تصطدم مع التيار الدينى وشكلت أحزابها وباشرت بالنضال كتيارات سياسية وفكرية إلا أن الظروف كانت قد تغيرت لغير صالحها إذ ظهر إلى الوجود تيار صهيونى عالمى له أهداف فى منطقتنا، ومدعوم من كافة الدول ذات القدرة على العمل عالميًا ومكون من كوادر مثقفة ومنظمة ومتفهمة للظروف العالمية والمحلية تفهمًا مبينًا على العلم والواقع، ولديه الإمكانيات المالية الضخمة. فشكل حجر عثرة أمام توحد الشعوب العربية أولًا وأمام مخططاتها.

- وانتبه التيار الدينى الإسلامى أيضًا إلى ضرورة تشكيل الأحزاب للوصول إلى السلطة وقيام الدولة المسلمة بقيادة حزب عقائدى على غرار الأحزاب الماركسية بدعوته للعنف والثورة لكن على عقيدة دينية ووجد فى مفهوم الجهاد بديلًا عن الصراع الطبقى.

- إلا أن قصور الرؤية لدى الحكام والشعوب العربية ونخبها المفكرة وأجزائها السياسية الدينية والقومية والماركسية والليبرالية ظهر بعجز هذه القوى مجتمعة عن فهم:

١- المرحلة الراهنة.

٢- فهم الظروف الدولية.

٣- فهم طبيعة العدو وطبيعة الصراع.

٤- وضع أهداف مرحلية وعملية تؤدى جميعها إلى هدف عام.

بجميع هذه التيارات والأحزاب والقوى كانت معادية بعضها لبعض فالقوى القومية طرحت الوحدة العربية هدفًا لها ليتسنى لها تحرير فلسطين. وبهذا هددت كل القوى المستفيدة من التجزئة وتعادت معها واستنزفت قوى الطرفين. والقوى الدينية طرحت الوحدة الإسلامية فتعادت مع جميع الحكام المسلمين الذين لهم مصلحة بالتجزئة إلى جانب معاداتها للقوى القومية والماركسية الملحدة. وأيضًا استنزفت القوى فى معارك داخلية والقوى الماركسية- ليس للعامل وطن- قللت من أهمية تحرير فلسطين والتحرر الوطنى عامة لحساب التحرر من الاستغلال فعادت الجميع. وكان المستفيد الوحيد من هذه المعارك الجانبية الصهيونية وراعيتها أمريكا والدول الغربية، والمتضرر الوحيد منها هى الشعوب العربية- والجميع وجد التعزية بشعار العنف

والضرورة:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبًا ∴ فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وهنا وقعت فى مطب آخر، فعندما كان العنف ضرورة استهلكت طاقتها فى معارك داخلية. وعندما تطور الزمن وتطورت معطيات الحضارة وأدرك جميع المتنورين فى العالم بأن العنف ما هو إلا دمار ذاتى للطرفين ففى القديم كانت الحروب تخدم التطور الطبيعى فباستخدام السلاح (رمح وسيف وسهم ونبال) لا يموت إلا الضعيف وقليل الحيلة. بينما تصطفى المعارك الأقوى والأدنى وصاحب الحيلة ليحيا ويحيى الطبيعة من جديد، أما مع الأسلحة الحديثة فإن الحرب يمكن أن تدمر مكتسبات الشعوب عبر قرون عديدة خلال دقائق، وكلنا نرى كيف أن ملاعب كرة القدم والكرات الأخرى أخذت بريق المعارك الحربية وخطفت اهتمام الشعوب التى خاضت حربين عالميتين مدمرتين خلال ربع قرن واستحوذت على خبرة رجالات التخطيط والتنظيم لديها، وكلنا نرى كيف أن معسكر حلف وارسو الذى كان يمثل نصف قوة العالم الذى يعد نفسه للحرب بدون سقوط شهيد واحد وبدون أن تثور أية طلقة مدفع أو بندقية.

وكيف أن المافيا استعادت وحدتها بدون حرب وأن الصين تسعى الآن لاستعادة إقليم تايوان بدون حرب. والكوريتين تسعيان للوحدة بدون حرب ولنا مثال بالهند التى توزعت إلى هند وباكستان والباكستان توزعت إلى باكستان وبنغلادش والجميع رضى بالأمر الواقع.

وعلينا نحن العرب أن ندرك شعوبًا وحكومات أن الاختلاف السياسى هو تعبير عن اختلاف فى التعبير عن هذه المصالح. وعن الخيارات السياسية تجاه مشكلات المجتمع والسلطة، وعلينا أن نوحد مصالحنا أو نلتقى فى المصالح الموحدة أصلًا وما أكثرها! وندع المصالح المختلفة أو التى يعبر عنها بشكل خلافى إلى أن تواليها ظروف تلاقيها وتقاربها بعضها من بعض وفى نهاية الأمر توحدها. وفى النهاية الزمن هو الذى سينتصر وليس الناس ولا إرادتهم، فالإنسان ليس العنصر الوحيد فى هذا الكون بل هو مندمج مع الزمن، ومع الطبيعة والعالم، والقوة فى النهاية هى إظهار الحق وليس الغلبة. تقول عادة أن الغبى له حسنة وحيدة وهى أن الناس يغفرون له عيوبه بسرعة، ومن ناحية أخرى نجد فئات شعبنا المتناحرة وحكام هذه الشعوب وزعماء تلك الفئات المتناحرة وشيوخ الإمارات المختلفة ينعتون بعضهم دومًا بالغباء دون أن يفكروا

ولو مرة واحدة أن يغفروا عيوب بعضهم. بل يعيشون قانون الغاب "كل إنسان لنفسه والله ليس لأحد".

إن الواقع السياسى والشعبى العربى غير سار، لكن الأمة التى تريد الحياة يجب أن تربيها المصائب وتهذبها النائبات إن هذا العصر سيكون على الأمة العربية عصر مفاجآت مذهلة. فالدول الكبرى تواصل فرض نفوذها، على منطقتنا ومواقعنا الجغرافية وثرواتنا بشتى السبل وإسرائيل ملتزمة باستمرار بتهديد العرب.

وتاريخنا العربى عندما نستنهضه يواجهنا بما يصعب الإفصاح عنه. وواقعنا لا نحسد عليه من جميع النواحى، والعالم من حولنا متبدل باستمرار وعلى إنساننا العربى حاكما كان أو مفكرًا أو متدينًا أو زعيمًا أو يمثل حزبًا أم فئة أن يبحث عن الحل. يقول الأديب الألمانى بريخت: "الإنسان والعالم لا يتجابهان كما لو كانا وحدتين متكاملتين، إن معركتهما تكمن فى التحول والتبدل الدائم. أنا الواحد والآخر فى خدمة غيرنا، إذًا نحن نافعون" إن حياة كهذه مستحيلة لا بد من إيجاد المخرج

١- علينا أن نحدد موقع هذه المعركة نسبيًا بين مد التاريخ وجزره.

٢- يجب أن نناضل ضد الطبيعة (طبيعة شعبنا الباحث عن الحلول فى السماء) التى لم تعد طبيعية ضمن صراعات العصر الحالى. ولم تعد تتوافق مع أى شىء أصلى وأزلى ومقدس. وليست هى سوى نتاج حالة اجتماعية وظروف توالت وخلفت أمراضًا مزمنة ومستقرة لا هى تجلب الموت فتنتهى المعاناة، ولا تدفع بالحياة لتقضى على المرض.

٣- وحدها دروس الواقع يمكن أن تعلمنا كيف نغير الواقع. لا يمكن أن نطبق دروس السلف لنغير واقعًا لم يعرفه أسلافنا.

٤- إن الشرط المسبق لكل تغيير فى مجتمعنا هو أنه علينا أن ندركه بوحدته وحركته فى آن معًا.

٥- أن نملك المعرفة المحسوسة النافعة التى هى الشرط الأساسى لكل تطور. وهذا الشرط هو الحركة الثورية الأفضل، وعلينا أن نأخذ الأمر على عاتقنا.

٦- أن نعرف كيف نستفيد من كافة مكونات الشعب وفئاته، فكافة مكونات شعبنا عبارة عن نسيج واحد وهدفها واحد. وعلينا أن ندرك أن تصنيفات السلطات الحاكمة

لفئات شعبنا: مرجعية، وكفرة، وانتهازية، وخونة، هى عبارة عن خدعة تكررت لتصبح شبيهة بالحقائق التى يستسيغها العقل ويقبلها الحوار كثقافة. وقد اعتادت السلطات على التنويه بها ليسهل عليها حكم الشعب بكافة فئاته.

٧- علينا أن نقول الحقيقة التى تجعل من العمل ممكنًا. ويجب أن نعرف كيف نقول هذه الحقيقة. وهناك خمسة صعوبات لقول الحقيقة:

أ- أن نملك الجرأة لكتابة الحقيقة التى ليست أمرًا عامًا راقيًا ومبهمًا. لكنه ليس أمرًا دائمًا له وقع حسن ويجب أن تأخذ شكل أرقام ووقائع يكون كل شىء فيها صعب الإنشاء ويتطلب أبحاثًا واستطلاعات.

ب- أن نملك براعة فى جعل هذه الحقيقة سلاحًا، وأن نعرف كيف نقول الحقيقة رغبة فى تأثير نتائجها على الذين يتلقونها. وأن نتحدث بلغة عملية. وأن تكون هذه الحقيقة فيها الخير لكافة فئات المجتمع ومكوناته لا تنال من أية فئة أو جماعة أو تيار أو حزب.

جـ- أن نملك من البصيرة لنعرف لمن نفضى بهذه الحقيقة. لكل فئة أو شريحة نخاطبها باللغة التى تحلو لها وتفهمها.

د- أن نتمتع ببعض الحنكة لنتمكن من نشر الحقيقة فى العالم الذى نعيش فيه، حينها حتى العدو سيضطر إلى أن يعيرها أذنًا صاغية.

هـ- أن نسأل كل شىء عن سماته المتغيرة لأن الحكام يمقتون التغييرات.

٨- علينا أن نفهم بأن العلاقة بين الشعب والسلطة هى علاقة أرجوحة لا يثبت الذين فى الأعلى فى مكانهم إلا لأن غيرهم باقون فى الأسفل.

٩- أن نقيم وزنًا للشرعية الدولية بحكم أننا ضعفاء. فإذا استطاع الطرف القوى عدم الانصياع للشرعية الدولية لا يدفعنا هذا إلى أن نفعل بالمثل أو أن نفهم أن مخالفة الشرعية الدولية يمكن أن نجد لها بعض المبررات. ويجب أن نضع فى اعتبارنا بأن هذه الشرعية ليست أزلية. فيمكن بتغير الظروف أن تتبدل لصالحنا.

فلا تزال أمتنا تعانى فى صراعها مع العدو الصهيونى من رفض قرار التقسيم الذى أقره المجتمع الدولى، هذا الرفض غير المستند إلى قوة. فلا بد لأى حق من قوة تدعمه. كما لابد لأية قوة حتى تصبح شرعية من حق تعمل فى إطاره، فرفضنا لقرار

التقسيم فى حينه حول إسرائيل من إمارة صغيرة قد يصعب عليها أن تعيش وتستمر إلى دولة تهدد العالم العربى أجمع.

١٠- الحقيقة الأهم من كافة الأحداث الاستثنائية والتى هى بمثابة القاعدة. أن فئات شعبنا بكافة دياناته وطوائفه استطاعت أن تتعايش ثلاثة عشر قرنًا فى أحلك الظروف وأدق المواقف، وتعرضت للهزائم نفسها وعانت المرارات ذاتها وقاست الاضطهاد ذاته. فهى إذًا تستطيع أن تتابع المسير إلى المستقبل المشرق متكافئة متوحدة مستهزئة بالمخاطر وأى موقف لهذه الفئة أو تلك فى هذا الظرف أو ذاك هو استثناء وأى استثناء فى الطبيعة كما فى الحياة السياسية والاجتماعية هو مبنى على القاعدة. إنه يبرز القاعدة. فطالما معاناتنا واحدة ومصيرنا واحد لا بد من أن يكون هدفنا واحدًا.

١١- حتى الآن لم يبحث العرب كدول ولا كمؤسسات ولا كأحزاب ولا كنخب كيفية معالجة هذا الوباء الخارجى ــ إسرائيل ــ ولا كيفية مقاومة مخططاتها والقوى الداعمة لها، لأن هذه المعالجة يجب أن تبدأ من الداخل أولًا إذا ما حصلت، والداخل لا يريد أحد الاقتراب منه ووضعه تحت النور لأن الداخل مستقر على وضعه منذ زمن طويل ويخشى كل تيار أن تتغير مواقعه إلى الخلف.

١٢- الشعارات والأفكار المطروحة كثيرة لكن الفكرة القابلة للتثبت من صيرورتها والتى لا تختلف حولها الآراء ولا تتباين النتائج فيها هى التنمية. فالأشياء التى تشكل الضرورة الأولى فى حياة شعبنا هى تأمين المأكل والملبس والمسكن اللازم للشعب. وأن نهتم بتربيته وبصحته. وإذا افتقر الشعب لها فمن العبث أن نحدثه عن القيم الأخرى حتى عن المقدسات فلا يسعنا أن نتكلم مع شخص يتضور جوعًا عن الله وشريعته والحلال والحرام. وفى عهد الخليفة عمر بن الخطاب مرت سنوات قحط وجفاف على الأمة الإسلامية وكثرت السرقات ومعروف أن إقامة الحد على السارق هو قطع يده. فأوقف عمر إقامة الحد على السارقين فى هذه السنوات العجاف.

فالجائع علينا أن نعطيه أولًا قوتًا يسد رمقه، والمريض نعطيه دواء يشفيه، والعارى نعطيه لباسًا يقى بدنه والمشرد نعطيه سكنًا يأويه وأهله. وإن واجهنا هذه الضروريات سيظل لنا مثال أعلى نتوق إليه كالمقدسات والوطن والحرية والكرامة الشخصية. وكل سلطة حاكمة لا تضع هذا ضمن أولوياتها لن تحوز على احترام وتقدير والتزام شعبها. كما لن يصدقها أعداؤها بأنها تعد العدة لمواجهتهم.

١٣- لقد كان أحرار العرب على حق فى دعوتهم إلى إحياء روح القومية وبعثها من جديد بعثًا صحيحًا قائمًا على دعائم متينة. وأن نستخلص من تاريخنا المواقف القومية النبيلة كحادثة جبلة بن الأيهم الذى كان وقومه فى جيش الروم بمعركة اليرموك فخاطب جنوده: أنحارب قومنا أم نحارب ديننا؟ لأنه وقومه يدينون بالمسيحية ـ فأجمع رأيهم على محاربة أهل دينهم. وبموقفهم هذا تم النصر للعرب على الروم. ولا شك أن القومية هى التجانس الروحى الذى يتناول الأهداف والمثل العليا للمستقبل والذى يستمد حيويته من الماضى والتاريخ، فمنذ نبينا إبراهيم عليه السلام مكونات شعبنا تنتظم فى نسيج واحد حول بيوت عبادة الله الكعبة والقدس ولا تزال. وما وجود إسرائيل إلا جسم غريب دخل أرضنا ويتحتم على شعبنا وتاريخنا وأرضنا أن تلفظه مهما طالت إقامته.

١٤- يجب أن نربى شعبنا تربية قومية. فالفكر وحده ليس إلا واحدًا من عناصر الطبيعة الإنسانية، وأمل بعض المفكرين أن تعمل التربية العالية على إنماء المخيلة إلى جانب الفكر والقيم المعنوية التى تعد ذات أهمية أساسية فى مثل هذه الحالة. وإذا لم يكن هنالك دمج وانسجام بين ملكات الفرد فكيف يمكن أن يتوفر الانسجام فى المجتمع؟ ويجدر بالتربية منذ المراحل الأولى أن تبرر كرامة الفرد بصرف النظر عن ظروفه الاجتماعية. وهذه التربية ستكون منذ الطفولة وتستمر عبر مراحل الحياة ستؤدى نفعًا أكثر من التربية الحزبية والطائفية والدينية فى ظرفنا الراهن. وفى الأمور الاجتماعية والسياسية يفضل الابتعاد عن التربية التى تثير الفرقة وتجزئ الكرامة حسب الملل والأحزاب والطوائف.

١٥- لقد نهضت أوروبا خلال ٢٥٠ سنة الأخيرة ونهضتها قامت على التقاليد الأساسية الموروثة عن اليونان منذ حوالى ٥٠٠ سنة مضت وقفزت عن مرحلة الديانات الإبراهيمية جميعها إلى الثورة الصناعية والفكرية مباشرة متجاهلة أربعة آلاف سنة من عمر تاريخ البشرية، إذ لا حاجة لها به، وحققت عبر قرنين ونصف أضعاف ما حققته البشرية عبر تاريخها الطويل فهل لنا عظة بها؟

فى الختام.

لقد كان لنا تعزية فى الماضى إذا حلت مصيبة فى قسم من عالمنا العربى يتابع القسم الآخر مصيبته. أما اليوم فالعالم كله أصبح صغيرًا، فالعالم الحديث يجد نفسه

اليوم متضامناً برمته فى الحياة والموت، ففى السابق كان التقدم محدودًا وكذلك الكوارث أما اليوم فالسرعة هى كل شيء.

## ثانيًا: أزمة ديانات وطوائف وتاريخ

**الجواب الأولى وببساطة هو التالى:** إنها مجموعة من الأزمات تداخلت وتفاعلت وتشابكت خلال ثلاثة عشر قرنًا ونيف لينتج عنها طبخة اسمها الأزمة العربية الراهنة، طبخة يصعب ابتلاع مكوناتها وهضمها ودعنى أبدأ من أزمة ديانات وطوائف وتاريخ، أى منذ بداية تشكل ما يطلق عليه الحضارة العربية الإسلامية:

يقول معروف الرصافى فى كتابه الشخصية المحمدية فى الصفحة السادسة عشرة:

"محمد أعظم رجل عرفه التاريخ. أحدث فى البشر أعظم انقلاب فى الدين والسياسة والاجتماع. فعزم لا يرده راد. وتفكير عميق الغور بعيد المرمى. وخيال واسع قوى يكاد لا يقاوم الحقيقة بقوته. وطموح إلى العلا لا يعلو عليه طموح، وغزارة فى العقل وثقوب ذكاء. إلا أنه من هذه الناحية: لا يفوق إلا المحيط الذى نشأ فيه، والعصر الذى هو منه".

لكن لن يفوقه أحد فيما أوتى من صبر وعزم. وهو مع ذلك بشر مثل كل إنسان ولا نرى فى حياته ما يخرق العادة ويخالف سنة الله وقد ورد فى القرآن **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**.

وأنا أفهم أن سنة الله هنا هى قوانين الطبيعة، لكن التابعين استعاضوا عن سنة الله التى لا تبدل بسنة الرسول. كان وضع العرب فى ما قبل الدعوة موازيًا إلى ما هو عليه الآن من تفرق وتشتت وضياع وقد كان غير ضامن لإصلاح هذه الحالة ما جاء به محمد بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" وهى مفهوم لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والمصلحين والمفكرين من البشر لأن يهوا كان إلاهًا واحدًا لكنه ليس بإله عام. بل إله اليهود فقط.

كان العرب فى جاهليتهم يعرفون الله ففى القرآن فى سورة لقمان «لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» لكن لا يوحدونه بل يجعلون له شركاء.

وعبارة لا إله إلا الله هى كلمة توحيد وهى للناس لا لله ﴿إن الله غنى عن العالمين﴾ آل عمران ٩٧.

هذه هى رسالة الإسلام التى أتى بها محمد والتى طبعت مرحلة الحضارة الإسلامية ولا زالت حتى يومنا هذا تمثل أهم التيارات الفكرية البشرية فى المنطقة. لكنها لم تنقل إلينا كما وصلت إلى محمد وصحابته فى عهده. بل مرّ بتيارها كثير من الأفكار والمفاهيم التى عبرت فى حينها عن بعض المصالح والامتيازات لفئات خاصة، ومع الزمن نمت وتزايدت حتى أصبحت شيئًا من التراث الثقافى والدينى. فظهرت فئة تدعى أن الإمامة (أى السلطة) لأهل المدينة الذين حضنوا الرسول وأمنوا له الحماية، وفئة تدعى أن الإمامة فى قريش وفئة أخرى تدعى أن الإمامة فى أهل البيت متجاهلة أن معظم آل البيت كانوا مشركين وحاربوا الرسول كأبى لهب وأبى جهل.

وكما يقتضى أى دستور فى علاقته مع السلطة الحاكمة التنفيذية يوجد مفسرون يكيفون بتفسيراتهم القواعد العامة مع متطلبات اللحظة الحاضرة، وجد مفسر القرآن فى خدمة السلطة الحاكمة يفسرون ويأتون بالشواهد ويقربون قاعدة ويتجاهلون أخرى فى كل عهد لخدمة هذا العهد. فعبر ثلاثة قرون طالما كانت السلطة عربية تجاهل المفسرون القواعد التى تساوى العرب بغيرهم مثل: "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى". و"إنما المؤمنون أخوة" وعندما انتقلت السلطة إلى غير العرب أصبحت مثل هذه القواعد تحتل المرتبة الأولى فى الدين لأنها أكثر ما تخدم المرحلة. وعندما كان المفسرون يعجزون عن التفسير وتطويع القواعد العامة لتلائم حاجات المرحلة ــ وهذا شىء طبيعى ــ يلجأون إلى الاجتهاد، وكل هذا التراث عبر ثلاثة عشر قرنًا أصبح جزءًا من الدين. وفى مرحلة ضعف الدولة أصبح الجزء الواقى للدين للحفاظ على استمراريته وأخذ مكانه فى واجهة متحف المقدسات.

فى بداية الدعوة الإسلامية لم تكن الغاية دينية محضة بل دنيوية أيضًا، فقد قبل الرسول الجزية من غير العرب من أهل الكتاب والمجوس وتركهم على ما هم عليه من الكفر رغم أنه "أتى لدعوة الناس كافة إلى التوحيد" فقبوله الجزية من المجوس وعدم قبولها من المشركين العرب تدل على أنه كان يرمى إلى إحداث نهضة عربية دينية اجتماعية سياسية يقوم بها العرب فى البدء ثم تعم وتشمل الناس جميعًا. وهذا يحتاج

إلى المال وإلى خزينة قوية لذلك أخذ الجزية من المجوس يؤدونها مع البقاء على كفرهم. وقد أشار شعر أبو العلاء المعرى إلى ذلك:

المال يُسكتُ عن حق وينطق فى ∴ بطلٍ، وتجمع إكرامًا له الشيعُ

وجزيةِ القوم صدت عنهم فقدت ∴ مساجد القوم مقرونًا بها البيع

مثل هذا التصرف المؤقت من النبى محمد والذى دعت إليه ضرورة ما اعتبر فى عهد التابعين جزءًا من الرسالة فالرسالة، لدى المفسرين هى القرآن والسنة. وإذا كان القرآن هو كلام الله والسنة هى تصرف الرسول اليومى حسب الظروف دون أن يناقض مبادئ القرآن وجدنا أن السنة أكبر وأوسع حجمًا من القرآن، فكيف إذا أضفنا إليها الاجتهاد والذى هو انعكاس لرأى الحاكم وتبرير لما عمله أو لما سيعمله؟ ولما كان أى تصرف لأمير أو حاكم فى حال كون الإمارة أو الدولة قوية يكون متوازنًا ومشروعًا وإيجابيًا لكن عندما تضعف السلطة وتبهت هيبة الحاكم يصبح الاجتهاد مبتذلًا والتفسير ذرائعيًا وتبريريًا ليغطى هفوات وضعف المسؤولين. ويصبح اتباعنا للسنة تسترًا بالدين.

إذا كان هذا ضمن مؤسسات ودولة تعمل بالقانون يمكن تجاوزه بتجاوز المرحلة زمنيًا، لكن عندما تكون الدولة تعمل بقانون الدين تصبح هذه التجاوزات والأخطاء مهما تراكمت جزءًا من المقدسات لدى العامة. والسلطة، أى سلطة، عبر أى زمن تقوم على توجيهات نخبة مفكرة لكنها تستقوى بالعامة فلا غنى لأى سلطة عن الرعاع.

ففى معظم الدساتير العربية إن لم يكن كلها مادة أولى: دين الدولة الإسلام

فالدولة: فى المفهوم العلمى هيئة اعتبارية والهيئة الاعتبارية مثل أى مؤسسة ليس لها دين. فالدين لإنسان مفكر عاقل. ولا نجد فى أى دستور عربى ما ينص أن الدين حق مدنى لجميع المواطنين لأخذ الحقوق التى تخص الأفراد الدين الإسلامى حارب عبادة الأصنام. والأصنام بحد ذاتها ليست أحجارًا بل رموزًا فكرية للسلف يتقربون بها إلى الله زلفى «أى بالواسطة» والآن نرى العتبات المقدسة لا تختلف عما كان للأصنام من تأثير على عقائد الأولين. وهى الآن جزء مقدس من الدين لقد خاطب القرآن أهل الكتاب بسورة عمران ١٦٤ ﴿فيا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا

وبينكم أن لا نعبد، إلا الله ولا نشرك به شيئًا...﴾ ولم يقل لهم أن دين الدولة هو الإسلام، وفى معركة اليرموك بين البيزنطيين والعرب لم تكن الحرب دينية إذ وقف العرب المسيحيون بقيادة جبلة بن الأيهم وهو أمير غسانى يدين بالنصرانية وكان وجيشه منضويًا تحت إمرة هرقل قائد جيوش الروم ومكلفًا بالسير فى المقدمة لامتصاص الصدمة الأولى فى المعركة وقف هذا القائد العربى مخاطبًا جنوده: هل نحارب بنى قومنا؟ أم نحارب أهل ديننا فكان الإجماع أن يحاربوا أهل دينهم وينصروا بنى قومهم. فانضموا إلى جيش خالد بن الوليد وكان لذلك أبلغ الأثر فى نتائج المعركة لصالح العرب.

العيب فى ماضينا أن الكل يعرف معركة اليرموك، كيف كانت نتائجها لكن حادثة جبلة بن الأيهم هذه لا يعرفها غير المؤرخين لأنها نقلت على أنها معركة بين المسلمين والروم وليس بين العرب والروم.

فى عهد خلافة الإمام على بن أبى طالب جرت مئات المعارك وقتل فيها عشرات الآلاف وكانت كلها معارك داخلية بين المسلمين بعضهم بعضًا، ولم يقتل أحد فى هذا العهد بمعركة مع العدو الخارجى فكثرت التصدعات فى المجتمع وانتشرت الشيع وأصبح الدين قرآن فى جانب، وشيعًا فى جانب آخر. والكل يدعى أنه صاحب الدعوى والمدافع عن الرسالة. والكل له مفكروه ومفسروه ورواته، وبمعنى آخر كل له رسالته والدين هو الإسلام.

هذه الحروب هى فى واقع الحال نكبات. والنكبات بحد ذاتها مآس إنسانية لا تنقضى بانقضاء الأحداث التى سببتها. فمن الصعب أن يطويها النسيان. ثم إن الذين يعانون هذه المآسى هم منغمسون فى خضمها ومحقون فى تصورهم بأنها قوضت كل شىء وقطعت كل الروابط. وعصفت بالقيم والعواطف كلها.

فعندما نضع مادة أولى فى دساتيرنا "دين الدولة الإسلام" يصبح لزامًا علينا عندما نشرع فى توحيد شعوبنا أن نوحد ديننا الإسلامى فى دين واحد. وان نوحد شعبنا مرة أخرى مع اتباع الديانات الأخرى وهذا أعتقد أنه قد وضعنا فى أزمة تفاقمت عبر ١٣٠٠ سنة ولا زالت تتشابك وتتعقد. وإذا أوغلنا فى ذلك أكثر نصبح غرباء عن تراثنا وعن شعوبنا ويصبح الإصلاح أصعب.

مرت أوروبا بأزمات دينية فى عصر الظلمات أى فى القرون الوسطى. وظهر فى بلدان أوروبا مفكرون متنورون وفلاسفة توصلوا بثاقبة ذهنية منقطعة النظير بأن العامة تعتبر هذه الفوارق مقدسات، وبما أنه لا يمكن قيام سلطة متوازنة وقابلة للحياة بدون العامة. لذا لا بد من ترك هذه المقدسات على حالها كقضايا فردية إنسانية ووضع فكرة غير مقدسة ولكنها ملزمة للجميع ومتوازنة وقابلة للحياة والتطور حسب الظروف هذه الفكرة هى القانون. وبذلك رمت الماضى بمشاكله وراءها بعدما أخذت منه ما يفيدها لفكرتها الجديدة «القانون» وانطلقت إلى الأمام محققة معجزة تاريخية يعيشها البشر كلهم اليوم أى دولة القانون التى تعترف بالجميع وتحفظ حقوق الجميع وتحترم مقدساتهم.

إن الدين الإسلامى هو أقوى تيار فكرى فى الثقافة العربية لا تكون له الجدوى المطلوبة إلا منطلقًا من مشروع قومى يهدف إلى تنمية هذه الثقافة وتطويرها وليس مجرد الذود عنها.

الثقافة الأحادية (الدينية) هى التى تمنع وحدة الثقافة فى عصرنا الراهن، ولو حصل أن وجدنا ثقافة موحدة تحل محل الثقافة الدينية يمكن أن يكون حلًا فإن ذلك يقتضى إنهاء الطائفية بكل أشكالها ففى أوروبا فهناك أحزاب مسيحية تعلمت الديموقراطية ووضعتها ضمن برامجها السياسية بينما لا تجد فى بلادنا أحزاب دينية توصلت إلى ذلك.

الحل فيما نراه:

١- تطوير الدين الإسلامى ليتلاءم مع الديموقراطية وهناك حركات فى بداية عصر النهضة العربية بداية القرن العشرين بدأت مع رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى وطه حسين وقاسم أمين حاولت تبنى هذا الاتجاه.

٢- تشجيع الحركات الإسلامية على التحول الديموقراطى لتتفاهم مع الفئات الأخرى. وهذا من الصعب أن يحدث قبل حل القضية الفلسطينية. وقيام التنمية والقضاء على الفقر.

٣- الشعوب العربية تعيش حالة إحباط وحالة هزيمة تعطى حجمًا للحركات التفكيرية الباحثة عن الحل.

٤- على النخب المفكرة والنخب السياسية العربية أن تبحث عن حل للقضية الفلسطينية وتنزع فتيل هذه الأزمة المتفاقمة. لتتفرغ الأمة لبناء مستقبلها ووحدتها.

٥- علينا أن نفهم أننا ــ وبحكم موقعنا فى وسط العالم ــ مزيج من الحضارات وإن كان أبرزها الحضارة الإسلامية. وهذا واضح من اللهجات والأزياء الشعبية والفنون الفلكلورية... ويجب أن نعترف بذلك.

٦- لا يمكن الفصل بين الداخل والخارج. فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن العالم أصبح واحدًا فهناك سياسات داخلية وسياسات خارجية لكن عزل الخارج عن المرض الموضوعى مستحيل، فمن المفيد أن نرى ما يقوله عنا الآخرون بل نصغى وننتبه لذلك لنستطيع أن نشخص أمراضنا، إذ لا يمكن وضع الحلول الناجحة إلا من الداخل، لكن بقدر من التفهم لعلاقتنا مع الخارج ونظرته إلينا.

٧- ينبغى أحيانًا أن نخالف مبادئنا كى نفعل الصواب، فكما أن الطقس لا يتوقف أبدًا عند أحد الفصول بل توقفه يعتبر نذير سوء، كذلك التمسك بالمبادئ والجمود عندها يمكن أن يكون له بالغ الضرر.

٨- لا يجوز لمدرسة حكومية أو شبه حكومية أن تروج لأى ديانة أو معتقد بل عليها أن تخفف من تطرف الجميع. وإذا كان لا بد من تدريس الدين فى المدارس فيمكن وضع نصوص متوافقة من جميع الديانات- وما أكثرها- كالتحريم والصدق، والنميمة، والقذف الخ ... فى كتاب واحد تحت عنوان تعاليم سماوية أو خلقية أو أى اسم آخر أو أقوال الأنبياء وما إلى ذلك، وتكون صالحة لكل الطوائف. وبذلك ننشئ الجيل الأول الذى لا يحمل أية تفرقة دينية أو طائفية. هذا الجيل الذى لا بد منه للبداية بأية انطلاقة جدية للخروج من المأزق الدينى.

لاسيما وأن الطفل الذى علينا أن نعلمه على سبيل المثال ــ الصوم والصلاة وهو ابن سبع ونضربه عليها وهو ابن عشر ــ ليس لديه بحكم سنة هبة المنطق وفى مجتمع متعدد الديانات والطوائف لا بد من تعليم دينى موحد. وكما أسلفنا ما أكثر النصوص المتوافقة فى الأديان!

٩- يجب أن يكون لدينا حس حاد بالباطل وبالأفكار التى تنبت مع ظروف بيئية، خاصة التفرقة والتشتت، وكما قال الدكتور أحمد برقاوي: "إن أخطر ما فى أدغال

الأنا والآخر: هو تأليه الأنا ضد ألوهية الآخر واعتماد العنف لتذويب الآخر وتوحيده القسرى".

فالقتل الذى تقف وراءه أيديولوجية تدعو إليه وتبرره بهاجس يختلف عن القتل الفردى الذى هو جريمة ويتحول المقدس الدينى- الذى هو رمز محبة الآخر- إلى دافع قتله.

١٠- فى مجتمع مريض. المرض هو الذى يتحدث وليس المريض، فهناك اختلالات هيكلية فى بنية الواقع السياسى والثقافى بسيطرة الدين وتغلغله فى النظام بغرض استبعاد فئات كثيرة عن المشاركة فى السلطة حكومة ومؤسسات. فهذا الجبن الكبير الذى تعانى منه فئات اضطرت إلى الانضواء إلى البيوت الدينية كنائس وجوامع. لا بد له من علاج تشرف عليه لجنة حكماء من كافة الديانات والطوائف فى أعلى مستويات السلطة مؤمنين بالأمة الواحدة والثقافة الواحدة ويتمتعون باحترام المتدينين من العامة والخاصة.

١١- الابتعاد نهائيًا عن تخوين فئات بعينها من قبل أى سلطة حاكمة أو أية مجموعة شعبية. فالخيانة شىء فردى وليس، شيئًا جماعيًا، وهى شىء معيب خلقيًا لدى كل الفئات ولدى كل البشر. ومن طبيعة أى عمل معيب أن يفعله فاعله سرًا لذلك لا يمكن أن يكون إلا فرديًا. حتى إذا وجد أكثر من خائن فى بيت واحد لا يمكن أن يعرفوا بفعل بعضهم البعض، فالخيانة كالسفاح أى الزنا بالمحارم فهو وإن حصل فيحصل بمنتهى السرية. وعندما تلجأ سلطة ما إلى التشهير بفئة معينة ووصفها بالخيانة حتى وان اقترنت بدلائل فهى لتغطية فشل هذه السلطة وتحميل المسؤولية إلى آخرين وبذلك ننقل المرض إلى الجيل الآتى بغرض بقائها فى السلطة أيامًا آخر.

يجب أن نبنى استراتيجيتنا على التسامح. فالاختلاف هو درجة من عدم التطابق بالآراء والأفكار والمعتقدات بين البشر. إنه تنوع فى المصالح غير المتساوية. بل تناقض فى المصالح. إنه أيضًا تنوع فى الانتماءات الإثنية والطائفية والقومية والدينية. أما التسامح فهو موقف أخلاقى من الآخر مؤسس على حق الآخر فى الحرية وعلى حقه فى ارتكاب الخطأ فكلنا بشر (أى خطاؤون).

١٢- إن كل تضاد وتناقض وصراع هو اختلاف بالضرورة. ولكن ليس كل اختلاف هو بالضرورة تناقض وتضاد وتصارع. يصل الاختلاف إلى تناقض إذا ما

وصلت المصالح بين البشر حدًا كبيرًا من الاختلاف. كما قد يصل الاختلاف إلى صراع إذا ما قررت جهة من جهات التناقض أو كلتاهما حسم الصراع عن طريق الغلبة.

١٣- الصراعات الدينية والطائفية داخل المجتمع ليست سوى تحويل الدين إلى أيديولوجيا تعصبية نافية للآخر. قد تكون المسألة كلها توظيفًا دينيًا لأهداف دنيوية. والتسامح بين الأديان هو التعايش. إذ من المستحيل أن تعتقد فرقة دينية باعتقادات فرقة أخرى أو أن يرضى دين بترسيمات دين آخر. لذا من الصعب أن يقوم حوار عقلانى ذو نتائج تصالحية بين الأديان والشيع. فالمقدسات غير قابلة للحوار أصلًا، والخيار الوحيد هو التعايش، وما التعايش سوى الإقرار بحق الآخر فى الاعتقاد. فحرية الاعتقاد تندرج ضمن الحقوق المدنية لأى مجتمع متمدن.

١٤- عدم نقد المرحلة التاريخية الدينية بالتفاصيل. فقد مر فى موكب الرسالات السماوية كافة عبر التاريخ الكثير من الشوائب والأخطاء التاريخية والتى كانت تهدف فى حينها إلى الحفاظ على امتيازات خاصة لهذه الفئة أو تلك ولا زال الفقهاء والكهنة يتحفوننا بنماذج متنوعة منها إلى يومنا العصيب هذا.

لأننا إن فعلنا وتطرقنا لها بنية الإصلاح سوف نقع بخطأ أكبر فداحة وهو وقوعنا فى مطبات الغربة عن شعبنا وعن تاريخنا وتراثنا. ذلك الخطأ إن حدث فلن يفيد معه أية نوايا إصلاحية وربما يستدعى رفض الفكرة جملة وتفصيلًا. وقد أدين الكثير من مفكرينا المتنورين بالغربة مثل محمد عبده وقاسم أمين كما كُفِرَ آخرون مثل طه حسين ومعروف الرصافى وعبد الوهاب النجار ونجيب محفوظ- رغم حيازته على جائزة نوبل- ومعظم هؤلاء من خريجى الأزهر ومثقفون ثقافة دينية عميقة ومحتكون بالثقافة الغربية عن كثب ونهلوا من كنوزها... ومع ذلك رفضهم الفقهاء والمتدينون. وذهبت محاولاتهم سدى فيما رموا إليه ودفنت فى مهدها. وهذا ما أدى إلى ثورة أحمد عرابى التى قمعها الإنكليز وطرد جمال الدين الأفغانى من مصر.

فهذا موضوع حساس يجب أن يعالج بمنتهى الروية والبطء ويعالج بشكل جماعى وليس بإطلاق العنان فرديًا لكل راغب وباحث متحمس. ويفضل أن ينتدب له مشرعون ثقاة ومخلصون على شكل هيئة عليا على أعلى المستويات ومن جميع الشيع والملل على مستوى الوطن العربى كله أو على مستوى الجامعة العربية، هيئة تضع

نصب أعينها وحدة هذه الأمة بأجزائها أولًا ووحدتها مع تراثها البناء ثانيًا وتجاهل التراث غير متوازن أو الذى يثير بعض الحساسيات. مع الأخذ بعين الاعتبار موازين القوى فى كل مرحلة وكل خطوة- النهوض بالعرب والمسلمين يستوجب الرجوع بالإسلام إلى صفائه الأصلى، ونطهره من جميع البدع والخرافات التى علقت به عبر القرون (كالاعتقاد بالطرق الدينية والأولياء الصالحين) وإحلال سلطة العقل محل كل سلطة وتحرير العقل من إساره والانعتاق من هيمنة الكهنة ورجال الدين وفصل الدين عن الدولة وعن السياسة بشكل عام. فالدين عبارة عن عقيدة وطقوس وقوانين، ويجب حصر تأثيره فى مجاله.

## ثالثا: أزمة ثقافية وقصور فى الرؤية

- هناك خطأ فى الرؤية، بأن الأمة العربية عاشت رغم عوادى الزمن لأنها تحملت رسالة مقدسة ﴿إنا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ والصحيح أن الأمم الضعيفة لا تعيش إلا نتيجة للتوازن الدولى مع وجود الإرادة لديها والدليل أن اليهودية عاشت رغم أن حكومتها لم تعش مع الانقطاعات إلا أقل من ألف سنة، ثم بظروف دولية لصالحها أسست دولة على أنقاض جزء من أمتنا وتحلم بإنشاء إمبراطورية عالمية.

- مازال الفكر العربى أسير نظرة سكونية لم تتفاعل بعمق مع تجربة التحديث الرائدة فى إقامة التوازن المطلوب بين التراث والمعاصرة بين الأنا والآخر. بين النزعة الإمبريالية التوسعية والانفتاح الودى على الجوار: بين التوظيف فى قواعد الإنتاج والتوظيف فى البشر وهم الرأسمال الأكبر وصانعوا كل حركات التحديث الناجحة.

ومازالت الضغوط الخارجية على بلادنا تعيق حركة التحديث وتحاصرها فقد تم تكبيل المنطقة بالوجود الإسرائيلى الجاثم على أرضنا. والآن الوجود العسكرى الأميركى والأوروبى فى العراق ودول الخليج الذى يعمل على مصادرة القرار السياسى والاقتصادى إقليميًا ودوليًا. ويهدد بالامتداد على كامل المنطقة.

إن نزعة حب الاستطلاع التى تعمل على إيقاظ الباحثين والمفكرين ودفعهم لتحقيق سيرورة المجتمع والتى هى فى الأصل سيرورة تاريخية لا تتوقف منذ انطلاقتها الأولى. هذه النزعة التى تراجعت فى لأوروبا فى القرن ١٦ أو بدءًا منه

ومجتمعنا بعكس الاتجاه بسبب المكون الدينى فجل نشاطات الفكر والبحث ذات الأصول التاريخية اتجهت إلى السماء للبحث عن الله وسؤاله عما إذا كان القرآن الذى بين أيدينا هو كلام الله الملقن إلى رسولنا؟ أم أنه إيحاء من الله إلى عقل رسول لله لينطق بهذا الكلام؟ أم غير ذلك.

فى أوروبا والغرب بصفة عامة تحول المفكرين إلى تيارات فكرية انقسم حولها الناس إلى أقسام تتنافس على الوصول إلى الحقيقة "الحقيقة العلمية". لكن فى بلادنا انقسم الناس وراء المفكرين والباحثين عن الله إلى طوائف وملل. كل منهم زعم أنه وجد الله ورسوله بطريقته، ومعظم المؤلفات التى كتبت فى الأساس باللغة العربية منذ عهد الدعوة النبوية الشريفة إلى يومنا هذا تتناول وجود الله. وباقى المؤلفات إما ترجمة لفكر الغربيين أو تقليدًا له أو اقتباسًا بتصرف عنه. (ترجمة العرب فلسفة اليونان ولم تكن أوروبا تنتج فكرًا آنذاك) بينما مفكرو الغرب اتجهوا إلى الأرض منذ نشأتها والفكر الإنسانى منذ نشأته والتاريخ المكتوب منذ نشأته وبدأوا بتمحيصه وتطبيق قواعد العلم عليه وانطلقوا للمستقبل، وعندما وصلوا إلى مرحلة الديانات السماوية انتبهوا وبنظرة ثاقبة إلى أن هذه المرحلة ــ بما تحويه من غيبيات ــ هى عقبة ستشتت البحوث وتفرع الطرق وتعبر الاتجاهات لأن علاقتها مع البشرية هى علاقة مقدسات فقفزوا من فوقها وتجاهلوها نهائيًا وتركوها لأجيال لاحقة. وتركوا للبشرية مقدساتها كما حفظتها لكن حضروها ضمن طقوس وممارسات وعقائد فردية دون أن تطول السياسة والمجتمعات والعلوم الأخرى.

فنجد الحضارة الأوروبية قد قفزت من الحضارة اليونانية بما تنطوى عليه من علوم وفلسفة مباشرة إلى القرن الرابع عشر الميلادى وتجاهلت ثقافة ثلاثة أو أربعة آلاف سنة كى لا تقف عند ما يقدسه البشر وتثبت صحته أو بطلانه وربطت الحقائق الفكرية اليونانية بالمكتشفات العلمية والجغرافية (دوران الأرض، وكرويتها، وفعل الجاذبية، وحركة الكواكب...) فالفكر الدينى غير مستعد لتقبل أن الكواكب قد خلقت بعضها بعضًا نتيجة انفجارات وحركات كونية. فأين يذهب قول الله وتعبه أسبوعًا كاملًا حسب الأسطورة الدينية- وهو يمهد فى الأرض ويحولها من غازية إلى سائلة ثم إلى جامدة وهل نكذب الله ونصدق إنسانًا؟ ويجمع المفكرون الغربيون على أنه عندما

تزدهر أقمار السماء- أى الأديان- تجدب أقمار الأرض، وعندما تزدهر أقمار الأرض تجدب أقمار السماء.

وإذا اعتبرنا أن العلوم والأقمار البشرية مهما تباعدت مصادرها فى الزمن- أى عبر التاريخ- أو فى المسافة- أى بين الشعوب- إن هى إلا فكر بشرى واحد نجد أن الدين والنبوة لم يعالجها الفكر البشرى بشكل علمى حتى الآن لأن مثل هذه المعالجة: إن حصلت تحدث فرقًا وشقاقًا. فالدين كظاهرة بشرية رافقت الإنسان منذ نشوئه وحتى الآن. وهناك أديان لم يدّع متبعوها أنها سماوية لا تزال موجودة وواجبة التقديس حتى الآن كالديانة الهندوسية والبوذية والماوية فهى عبارة عن أفكار مصلحين وواضعوها قالوا ذلك وأتباع هذه الديانات الأرضية هم من حيث العدد الأكثر بين البشر، ومن حيث العبادة الأكثر تقربًا وتزمتًا وكذلك ظاهرة النبوة. لقد نقل لنا التاريخ أسماء آلاف الأنبياء وسيرهم، رغم ذلك لم يلجأ الفكر البشرى الباحث حتى الآن إلى ظاهرة النبوة. كيف يخلق الطفل البشرى المؤهل للنبوة؟ ما هى مواصفاته؟ الجسدية والنفسية؟ كيف ينشأ؟ وكيف يتجاوز مراحل التشكل ليصبح نبيًا ثم ماذا يحصل له بعد الموت؟ هل يتحلل جسده كبقية أجساد الموتى أم أن له تركيبًا آخر ومصيرًا آخر؟ فالمفكرون الغربيون لم يقتربوا حتى الآن من هاتين الظاهرتين ولم يعتبراها أصلًا لأن نهجهم علمى وطرائق بحثهم علمية، بينما عناصر هاتين الظاهرتين كلام وأساطير من الغيب ومن المستحيل أن توضع رهن مراحل الشك المنهجى والتحقق العلمى التى لا بد لكل ظاهرة علمية أن تدرس بهما.

فالحداثة فى الفكر البشرى التى هى الفكر البشرى والنظريات العلمية والفلسفية والتى تحكم أوليات عملية التحديث لا بد لها من أرضية ملائمة تؤمن لها عدم التصادم مع المقدسات أولًا وعدم السقوط فى مطباتها ثانيًا وعدم السقوط أو الانزلاق أو الاقتباس الموصل إلى التغريب وفقدان الهوية.

## العلاقة مع الآخر

إن علاقتنا بالغرب- وخاصة أوروبا وأمريكا- مازالت علاقة تضاد واختلاف. فالغرب اليوم- وأكثر من أى وقت مضى- ما زال يريد لنا غير ما نريده لأنفسنا، نحن نريد الحداثة وهو يريد لنا التحديث. نحن نريد السيادة والاستقلال وهو يريد لنا التبعية

نحن نصبوا إلى التحرر والوحدة. وهو يدعم الأنظمة البدوية التى تقف فى وجه التحرر والديموقراطية وتمنع الوحدة.

وهناك فرق بين التحديث والحداثة. فالتحديث هو اقتباس العلوم العصرية المتطورة. أما الحداثة فهى استيعاب للعلوم العصرية والمشاركة فى الإبداع فيها على المستوى الكونى. وعملية التحديث لا يمكن أن تحقق الأهداف المتوخاة منها إلا بمقدار ملاءمتها للمجتمعات المنقولة إليها.

نحن فى البلاد العربية وبموجب ثقافتنا الدينية إن رؤيتنا للماضى تختلف أو لا تنسجم مع رؤيا الآخرين أى الذين تجاوزوا الرؤية الدينية. فإذا أردنا أن ندرس أية ظاهرة يجب أن نبدأ بدراستها منذ نشأتها وبشكل علمى إلى ما وصلت إليه ونسلط الضوء إلى ما ستصبح عليه هذه الظاهرة. ومن الصعب ضمن منظورنا الدينى أن ندرس كافة الظواهر بهذه الطريقة وترابط وتأثير الظواهر على بعضها فمثلًا مقولة "أن القرآن هو كلام الله.." يستوجب أن تكون اللغة العربية هى: إما لغة الله التى يتحدث بها إلى كونه ومخلوقاته أو أنها لغة اختارها الله من بين كافة اللغات ليخاطب بها نبيه لأن نبيه عربى ولا يعرف لغة أخرى. لكن سوف يتبع ذلك أن الرسول أرسل للبشرية جمعاء ليدعوها «إلى توحيد الله. فهل سنعلم البشرية اللغة العربية لندعوها إلى توحيد الله؟ أم سنترجم القرآن إلى تلك اللغات؟ لم نجد حتى الساعة مشرعًا يفتى أو يقول بصحة ترجمة القرآن. وكيف نترجم كلام الله. والمسائل كثيرة. فلا يمكن أن يقبل الآخر أن نصوغه وفق رؤانا الفكرية الدينية. فعلينا أن نعبد الله كما نص عليه القرآن من أصول العبادة. ونخاطب الآخر كما يمكن يفهمنا ونفهمه لا سيما أن الآخر بحضارته قد قفز عن مرحلة الأديان ولم يتوقف عندها. فإذا خاطبناه فى شتى المسائل من منظورنا ورؤانا الدينية سوف يضطر إلى العودة لمرحلة تجاوزها كى لا يصطدم بها. فهو أيضًا له ديانته. ويعبد الله على طريقته. والعلاقات الاجتماعية والسياسية هى علاقات بشرية علمية، بينما العلاقات الدينية هى علاقة مع الله بالدرجة الأولى ومن الصعب أن نجرى حوارًا علميًا بين هكذا علاقتين ونصل إلى نتائج توافقية.

إن تاريخ البشرية ليس إلا صراعًا لأجل الوجود. فاللذة والألم والعذاب هى الأسباب الوحيدة للأفعال التى تلعب فيها غريزة البقاء دورًا مهمًا. فتطور الملكية أحدث تغييرًا كبيرًا فى تأسيس المجتمع البدائى وشكله. فإنه قد قضى على مبدأ المساواة بين

الأعضاء بالنسبة لقرابة بعضهم لبعض. وولد الطبقات القائمة على مبدأ عدم المساواة. وكذلك قضى على نظام الانتساب للمرأة والإرث وفق العصب الأمومى وحول المرأة إلى ملكية الرجل، وخلق الأقنان وملكية الأرض. وسيطرت طبقة على طبقة وتأكدت هذه العلاقات وتقوت بإنشاء الدول والشرطة.

إن كل شعب متمدن قد مر بهذه العلاقات والتغييرات وإن اختلفت التفاصيل بين شعب وآخر فمدينة الرومان ١٠٠٠ سنة، ومدينة إسرائيل منذ داوود وسليمان مع بعض مراحل الانقطاع دامت أكثر قليلًا من ألف سنة واليونانية أقل والمصرية أكثر والبريطانية لم تبدأ قبل ألف سنة من هذا الطور. إلا أن هذه الدورة ظلت هى ذاتها. وفى بعض الحالات كانت هذه الدول تضمحل من على مسرح التاريخ ولا تستطيع أن تتم دورتها الكاملة. كل هذا أصبح من الحقائق العلمية. فهل نستطيع دراسته من رؤية دينية سلفية ونصل إلى النتائج نفسها؟

– فى القرآن ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾ وفى الواقع إن الإنسان فى الحاضر هو أكثر الحيوانات اللبونة انحطاطًا على وجه الأرض من الناحية الصحية، فبالرغم من تقدم الطب لا يوجد سوى ١٣% من البشر سليمون من الأمراض الجسدية وإذا حللنا الحياة العائلية والاجتماعية للقبائل المتوحشة الموجودة الآن حول هماليا وفى أفريقيا وبعض جزر المحيط الهادى. فإننا نلاحظ أنها ــ صفتها البدائية وبالرغم من عدم وصول الأديان السماوية لها ــ فهى أكثر انسجامًا وكمالًا كما هو لدى الشعوب المتمدنة. وإذا ما قلنا النظام فملكة النحل ومملكة النحل أكثر نظامًا بمئات المرات من ممالك البشر وهى موجودة قبل البشر بـ٣٠٠ مليون سنة ورغم ذلك لم تخلق حداثة ولا مدنية ولا تطورًا.

فالمنهج الدينى فى التفكير لم يثبت أنه يتماشى مع الأسلوب العلمى بشكل لا يقبل الجدل وبشكل لا يجعل البشر مختلفين ومجزئين فكرًا ومعاشًا. فإن الله وإن كان واحدًا لكن الطرق للاتصال به متعددة بتعدد الديانات والملل والطوائف والمذاهب. ونحن أمام إلزام وحدة الفكر البشرى إلا وهو التفكير العلمى ووحدة المستقبل البشرى وهى الحياة الأفضل. والتركيب وحده والتعقيد لا يفسران مجرى مسار التطور المادى النباتى الحيوانى الإنسانى ــ كما ادعت الماركسية ــ بل يجب الاستعانة بمبدأ آخر لتفسير الحياة فى سلم صعودها من المعدن إلى الكائن البشرى. وهو مبدأ الترفع... وكأن

الاستقطاب للأفضل وللأخير، وللأصفى والأنقى، والأبسط فى النهاية هو محور حركة كل شىء.

والأزمة فى الرؤية تؤدى إلى أزمة فى الثقافة، وأزمة الثقافة من أعقد الأزمات التى تواجهنا وتواجه مجتمعاتنا. فالإنسان مخلوق تاريخى ومخلوق متدين ومفكر. ومفكر ليس فى شؤون الله فحسب بل فى شؤونه وشؤون الكون وشؤون تاريخ الكون وسيرورته. وأمام الواقع- الذى نجم بالتأكيد عن ظروف حتمت حدوثه- نحن أمام أزمة الرؤية وناجم عنها أزمة ثقافة أدت إلى تخلفنا عن الشعوب كافة، فنحن الآن فى الدرجات الأخيرة على سلم الحضارة.

فكيف حصل ذلك؟ وكيف لم نتمكن من المقاومة والدفاع؟

لماذا تعمر نفوسنا بالكثير من النيات الحسنة ونتمتع بالكثيرَ من التقوى ونمارس العبادة أفضل من الآخرين، ولا نرى من أثر ذلك سوى نتائج إيجابية قليلة؟

١- الثقافة التراثية هى الركيزة الأساسية لنجاح عملية التحديث. فهى التى تحدد ملامح الشخصية القومية لأى شعب من الشعوب وقد يكون التراث حافزًا على الحداثة وقد يكون معيقًا له فالغربيون لم يكونوا مخطئين عندما قفزوا من فوق مرحلة الديانات وتجاوزوها لأنهم لم يكونوا متأكدين من عدم إعاقتها لمسيرتهم.

وإصلاح الثقافة التراثية يتطلب رسم استراتيجية طويلة الأمد يقوم بها المصلحون لتحديث المجتمع انطلاقًا من تراثه الأصيل عبر تطور الجوانب الإيجابية فيه. وإهمال الجوانب السلبية وتجاهلها وعدم التعرض لها لا سيما ما يتعلق منها بالانتماء المقدس.

٢- إن التحديث كمدرسة فكرية مستقلة هى غاية بحد ذاتها ولذاتها فهى سيرورة تفرض نفسها على الحاكم والمحكوم فى إطار التفاعل الطبيعى بين المجتمعات.

٣- المدخل التاريخى لعملية التحديث. فمن أية مرحلة سوف نبدأ كثقافة بشرية وأين نقطة ربط الثقافة البشرية مع ثقافتنا المحلية؟ هل هى فى العهد الأموى؟ أم مرحلة الترجمة، العهد العباسى؟ أم مرحلة الاحتكاك بالغرب فى الأندلس؟ أم مرحلة محمد على باشا؟ أم عهد عبد الناصر والمرحلة القومية؟ ولتحديد نقطة اللقاء هذه أهمية بالغة لتمكن من السير على طريق الثقافة التى أجمع البشر على أنها علمية وآمنة وتحقق

أفضل النتائج الإيجابية. فلا يمكن أن نتقدم إذا عاكسنا الآخر ولا إذا سببنا عرقلة لمسيرته بمفاهيمنا السلفية. فلا بد من تعايش ثقافى مع الحقائق الكونية التى هى نتاج جهود البشر أجمعين.

٤- مدخل اقتصادى ثقافي: يجب تغيير البنى الاقتصادية والاجتماعية وليس تحديث بنى منها على حساب بنى أخرى.

٥- العام والخاص: يجب توضيح ما هو عام يخص البشر أجمعين وما هو خاص يخص مجتمعًا بعينه ويحلل خصوصية أى مجتمع أو فئة أو ملة أو طائفة أو دين. والخصوصية لا بد منها فى أى مجتمع حديث ومعاصر انطلاقًا من الارتباط الوثيق بين تاريخه الخاص والتاريخ الكونى العالمى فى مسيرة التوحيد الرأسمالى للعالم.

مثال: من القضايا التى لا تزال متعثرة فى مجتمعنا قضية الزواج وهى تواجه البشر كل يوم، فالزواج كمفهوم عام هو عقد شراكة بين ذكر بشرى وأنثى بشرية. وكمفهوم خاص هناك انتماء دينى ومذهبى لكل من الزوجين. والوضع المعاصر الذكر والأنثى يعملون سوية منذ الطفولة فى المدارس وحتى سن الرشد ثم فى العمل ثم الزواج وأى زواج بين ذكر وأنثى مختلفى الانتماء يحث تشنجات لا تقتصر على عنصرية فقط بل تشمل فى تأثيرها فئات قريبة وبعيدة لها نفس الانتماء وقد تمتد لتطول نسلها من الجيل اللاحق. لذا نرى أن الأمور الثقافية والاجتماعية شديدة الصلة بعضها ببعض.

٦- التبدلات الاجتماعية: عملية التحديث لا بد من أن تشمل التبدلات الاجتماعية وهى عملية طويلة ومعقدة جدًا، وهى حافلة بالصراع العنيف بين القديم والحديث بين الأنماط التقليدية السائدة والأنماط الجديدة. بين الثقافات المحلية والثقافات ذات النزعة الكونية.

٧- وضع خطة لاستيعاب بعض المفاهيم التى طبعت الفكر السياسى الغربى كالعقلانية والعلمانية- التى كانتا بمثابة- الركيزة للنهضة الأوروبية الحديثة- وعدم النظر إليها بعيون شرقية. وعدم قراءتها على ضوء التراث العربى والمبادئ الإسلامية كى لا نتوصل إلى رفضها. فالثورة الفرنسية أصبحت من الماضى. لكن الأسس التى قامت عليها هى الأسس التى لا زالت تقوم عليها الحضارة البشرية المعاصرة. فمبادئ

الحرية والمساواة التى ميزت الثورة الفرنسية- أى العقلانية والعلمانية- بنيت على فكرة سيادة الإنسان وإحلال سلطة العقل البشرى محل السلطة الإلهية. بينما الإسلام يؤكد أن «حرية الإنسان محدودة ولا سلطة حقيقية إلا الله وحده» فيجب علينا وضع منهج للتوفيق بين المفاهيم الأساسية التى قامت عليها الحضارة الغربية ومبادئها العلمية وبين مفاهيمنا الدينية. فالتوفيق بين النظام السياسى العلمانى والنظرة الإسلامية التقليدية لا بد منه فى عصرنا الحاضر كى لا تصبح نظرتنا الإسلامية التقليدية بمثابة الحاجز بيننا وبين العقلانية والعلمانية التين هما أساس الفكر السياسى الغربى الحديث وبالتالى أساس الحرية والمساواة والعدل.

٨- حصر الدين فى العقيدة والطقوس والقوانين وفصله عن الدين والدولة وعن السياسة بصفة عامة، فالثقافة الحق لا تبنى إلى على العقلانية وتحرير العقل وانعتاقه من أى هيمنة.

٩- يقظة الشعب تستوجب علاوة على التعليم والثقافة والأدب الاتصال المباشر مع الشعب وهذا ما بدأه جمال الدين الأفغانى فى مصر مما أدى إلى طرده من مصر.

١٠- ضرورة إصلاح العقيدة وفقًا لمقتضيات الزمن. وليس تقييد الزمن وفقًا لنصوص العقيدة بحجة أن العقيدة الإسلامية تصلح لكل زمان ومكان. فهذه الفكرة لا تخدم انطلاقة شعبنا وأمتنا بقدر ما تخدم ذوى الامتيازات الخاصة. فكل زمن أحكامه. فالخليفة الثانى عمر بن الخطاب كان نموذجًا فى الماضى لتجاوز العقيدة وفقًا لمقتضيات الزمن ففى إحدى السنوات كثرت الزمان بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية فأوقف الخليفة أقوال من تقدم واستنبط وقال ما يوافق زمانه مع الأخذ بحركة التطور التاريخى وضرورية مواكبة العصر.

١١- القبول بالثقافات والفنون التى أفرتها مسيرة البشرية كفن النحت مثلًا ـ ففى ديننا الإسلامى المنحوتة عبارة عن صنم. بينما فى الحقيقة ليس الصنم: لا رمزًا ووسيلة عبادة، وقد حاربه الدين الإسلامى ﴿كى لا تتخذوا أولياء، من دون الله﴾ وليس لأنه مادة صلبة نحتت بشكل إنسان أو حيوان. فالكثير من المنحوتات اليوم تمثل أروع الفنون. وهذه الدراسات أصبحت من التراث الإنسانى لا يمكن رفضه فهو ثروة فكرية فنية بشرية. وكذلك الأزياء وأدوات الزينة النسائية والموسيقى و... و... فلو أردنا أن نلقى هذا كله لأنه لا يتوافق مع الدين نكون قد أتلفنا ثروة بشرية تجمعت عبر مئات

الأجيال إضافة إلى أننا سنرمى ملايين الناس الذين يعملون فى هذا المجال فى بحر البطالة، وانعدام فرص العمل، عداك عن التضييق على الفكر البشرى والإبداع الإنسانى.

١٢- يجب علينا دراسة وتمعن النتائج التى سببها انغلاق العرب على أنفسهم وانعزالهم عن بقية العالم وخصوصًا عن البلدان الأوروبية التى هى بمنزلة الجوار بالنسبة للعرب. بالإضافة إلى إحجامهم عن الاحتكاك ودراسة الحضارات الأخرى الحضارة اليونانية والحضارة الفارسية بحجة أنها ملحدة وأن "الإسلام يجب ما قبله"، فعندما قال الرسول القرآن يجب ما قبله قالها بصدد التسامح عن العدوان الذى كان قبل القرآن وليس بصدد عدم دراسة تجارب الآخرين. حتى وإن كان ذلك ففى بداية الدعوة كان هناك خشية من العودة للكفر وترك الرسالة. أما الآن فقد أصبح هذا كله من الماضى وتوزعت البشرية كلها إلى أديان معروفة واستقرت عليها. ودور هذه العزلة فى زيادة انحطاطهم الثقافى والاقتصادى وانكماشهم على أنفسهم.

١٣- دراسة أسباب ترك العرب لواسطة الاتصال الهامة منذ القدم وهى المواصلات البحرية لا سيما وأنهم بمحاذاة أكثر من بحر وأكثر من محيط وحاجتهم للبحر كانت ماسة للربط بين الأقاليم وبينهم وبين العالم المعروف هذا الترك الذى أدى إلى جمودهم الاقتصادى وتفاقم الجمود الفكرى والثقافى.

١٤- إيلاء الاهتمام الوافى بالتنظيمات السياسية التى تقوم على الدستور وتحديد سلطة الحاكم وتضمن الحرية والعدل اللذين هما أساس العمران. إذ يوفران الطمأنينة والمناخ الملائم، لنمو التعليم والبحث العلمى والإنتاج فى الميادين العلمية والتقنية والفكرية والثقافية.

فمن أهم أسباب تخلف العرب طبيعة نظمهم السياسية المبنية على الحكم المطلق وغياب الحرية والمساواة والعدل والحكم المطلق يدفع حتمًا إلى الظلم حسب رأى ابن خلدون- مؤذنا بخراب العمران. والحاكم العادل ليس موجودًا بخياره- حسب رأى أفلاطون- بل بالضرورة والإكراه.

١٥- اعتبار تعدد الأديان والطوائف والملل، والجماعات الإثنية والعرقية فى مجتمعنا عامل صحة وليس عاملًا مرضيًا والاستفادة من هذا التعدد فى مختلف المجالات فمثلًا يشكل أتباع الدين المسيحى فى وطننا عنصر تفاهم وجسور اتصال مع

الثقافة الغربية ومع شعوبها. كما يشكل اتباع الدين اليهودى من اليهود المقيمين فى البلاد العربية عنصرًا داعمًا لنضالنا فى مقاومة الفكر الصهيونى الاستيطانى، ويعتبر يهود المغرب من أكثر اليهود المعادين للصهيونية، ولقد كانت سكرتارية الحزب الشيوعى المغربى لأكثر من اليهود المعادين للصهيونية والإمبريالية والأميركية ولهم صحف ونشرات ومؤتمرات فاضحة لإسرائيل ودورها فى خدمة الإمبريالية. كما يمكن أن يكونوا الآن وسطاء لمحادثات السلام الشامل الذى أقرته قمة بيروت للجامعة العربية.

١٦- التمييز فى كافة نشاطاتنا الإعلامية والثقافية والفنية بين اليهودية والصهيونية ــ فاليهودية كدين تقبلها الدين الإسلامى عبر التاريخ وكان اليهود حلفاء للمسلمين إبان حروب الأندلس فى غرناطة وقرطبة وقشتالة ــ بينما الصهيونية منظمة إرهابية استعمارية استيطانية.

أضف إلى أن الخطاب الإعلامى ضد اليهودية غير مقبول عالميًا ويدخل تحت بند معاداة السامية وينص ميثاق الأمم المتحدة ــ الذى يمثل الشرعية الدولية ــ على رفض العداوات العنصرية والقومية، والدينية. عداك عن أن المعاداة الدينية ليست من أخلاق شعبنا ولا من سماحة ديننا. "ولو شاء ربك لجعل العباد كلهم مؤمنين".

١٧- إظهار ما فى تاريخنا وديننا وثقافتنا من تسامح ومن مبادئ إنسانية تقبل بالجميع وتتعايش معهم مع مراقبة وتدقيق وتخصيص الآيات القرآنية التى تصلح لتلاوتها فى صلواتنا وفى خطب الجوامع والتى لا تثير لدى السامع من الديانات والطوائف الأخرى إلا المحبة والإعجاب.

١٨- يجب أن نطلق العنان للخيال وبشجاعته. فإذا أعوذ الخيال الخلاق التقدم فهذا دليل على الانحطاط. وإذا عالجنا واقعنا الآن بمقياس الخيال فماذا يحصل اليوم؟ هل نحاول أن نتقدم فى هذا المضمار؟ أم أننا نبذل نشاطًا ما بصورة سطحية فى مكان ما؟

١٩- يجب أن ندرس تاريخنا بدقة دون أن نضفى عليه مسحة دينية. ونعتبر الدين أحد العناصر التى كان له دور فى حضارتنا. وليس كل العناصر بغية الوصول إلى حقيقة علمية. فعبر التاريخ كله لا نرى أجناسًا بشرية قد بلغت درجة عالية فى سلم الحضارة والثقافة والكمال إلا كان لها بيئة أكثر ملاءمة لتحقيق النموذج الذى

وصلت إليه. فيجب أن نلقى نظرة إلى الوراء إلى ما قبل الإسلام لنكتشف البيئة بعناصرها الإيجابية التى ساهمت فى ظهور الدعوة الإسلامية وبالتالى أمنت نجاحها. أما إذا اعتبرنا ذلك معجزة إلهية أو نبوية فقط فكأننا لا نريد أن نكتشف إلى ما وصلت إليه. رغم التربية الدينية الصالحة التى سار عليها الرسول وصحابته والتابعين.

إن مجموع البيئة- إضافة للتربية- التى يعيش فيها الكائن البشرى تؤثر فى تطوره. فما البيئة التى أنتجت فى الماضى تلك العهود الكبرى لتاريخنا؟ للأسف فهى غير مدونة. وهل تتوفر لدينا اليوم البيئة الصالحة لذلك لتكون أساسًا لبنائنا؟ وهل نسعى إلى تحقيقها؟ وهل سبيلنا صحيح؟ أم أنها مجرد نوايا؟ أم أننا نبتعد عنها كل البعد؟

٢٠- علينا أن نعيد النظر بكيفية مواجهتنا للقضية الفلسطينية بشكل يتوافق مع النظرة الشرعية الدولية ومع نظرة مفكرى أحرار العالم الذين يشاطروننا الرأى لا سيما بعد تعقيداتها الحاضرة إذ أصبحت اليوم قضية تحرير فلسطين تطرح قضية أخرى على العالم حلها وهى قضية سكان إسرائيل الحاليين من اليهود وهم حوالى ٥ مليون نسمة، فتحرير فلسطين بالقوة وإن كان من الوجهة الحقوقية أمرًا لا غبار عليه إلا أنه من الناحية السياسية والدولية يحوطه الكثير من التعقيدات. وعلى المفكرين والساسة العرب أن يطرحوا أفكارًا بديلة تحقق لهم أهدافهم.

٢١- يجب البحث عن عناصر فكرية تصلح لتشكيل تيار فكرى نموذجى يصلح لمختلف فئات الشعب العربى بمختلف الأقاليم ولمختلف الديانات والطوائف. ويكون جذابًا فكريًا وسياسيًا وخلقيًا يكون فى الوقت نفسه علميًا وتوافقيًا يحفظ حقوق الجميع ويوافق مع الآخر محليًا وعالميًا ويكون بديلًا للتيارات الدينية والقومية والماركسية التى أثبتت عقمها وعدم صلاحيتها لدفع المنطقة إلى التطور والحداثة.

٢٢- دراسة التجارب العربية التى كانت ترمى إلى الصحوة والوحدة فى العصر الحديث وتحليلها بعمق وتوضيح دوافعها الفكرية والثقافية منذ محمد على "الكبير" إلى عبد الناصر، إلى صدام حسين وفى صوابها وخطئها والأسباب التى أدت إلى فشلها. لماذا أسلوب العنف نجح فى فيتنام وكمبوديا وفشل عندنا؟ لماذا أسلوب السلم وفقدان الحضارة العسكرية نجح فى اليابان وألمانيا وفشل لدى الكثير من الدول العربية التى نأت بنفسها عن تشكيل قوة عسكرية ذات شأن؟

ماذا قدمت لنا حركة محمد على الكبير وإبـراهيم باشا المصرى؟ وماذا جلبـت من كوارث؟ ماذا قدمت الحركة الوهابية فى الخليج؟ بالعودة إلى فتح بـاب الاجتهـاد والسير على طريق السلف الصالح ومحاربة البدع؟

ماذا حقق التيار القومى فى مصر عبد الناصر؟ وماذا حققت تدخلاته فى الـيمن وفى لبنان؟ وماذا أفادت صداماته مع التيار الدينى؟ ومع التيار الماركسى أو اليسارى؟ وماذا حقق مشروع صدام حسين القومى وحربه مع إيران؟ وماذا أفـاده التـدخل فـى الكويت؟ وهل أن ضم الكويت لو تحقق كان سيؤمن له مشروعه التنموى؟ ماذا حققـت سوريا من تدخلها فى لبنان؟ هل أنهت الصراعات الطائفية؟ هل أمنت إحراجًا لإسرائيل وأمريكا؟ هل جلب هذا التدخل أمنًا سياسيًا أو عسكريًا أو استراتيجيًا أو اقتصاديًا لها أو للبنان؟ يجب أن ندرس كافة هذه الإرهاصات السياسية والاقتصادية من ناحيـة فكريـة لأنها كلها حصلت فى أقل من قرنين من الزمن. على أية أسس قامت؟ ما هى دوافعها؟ ما العامل المشترك بينها؟ ما الدروس المستفادة منها؟

٢٣- لماذا لم ندرس تجربة حروبنا مع إسرائيل بعمق؟ ولماذا لم تـدون حتـى الآن؟ ولم نكشف الحقائق حولها؟ ولم تصدر أى دولة شرحًا لـسير معاركهـا وعـدد شهدائها وخسائرها مادية ومعنوية وبشرية؟ هل كان العرب فى كافة هذه الحروب هـم بيادق تحركهم القوى الفاعلة على الساحة الدولية؟ أم كان لهم بعض القرارات النابعـة من إستراتيجيتهم؟ لماذا نأت الدول الخليجية ودول المغرب العربى عن التعـاطى مـع القضية الفلسطينية من الناحية السياسية؟ هل لبعدها عن مـساحة الـصراع؟ أم بفعـل ضغوط دولية؟ لماذا التيار القومى فى بلاد الشام وخاصة حزب البعث طرح خريطـة سياسية جغرافية أدت إلى عدائه مع كافة دول الجوار (تركيا، إيران)؟ رغم كونها حليفًا للعرب بعدائهم مع الصهيونية على الأقل من الناحية الدينية والتاريخية..؟ لماذا طـرح منهاج أهدافًا وحدوية استفزت كافة همم العرب وذوى السيادة ضد هذا المشروع؟ لماذا لا يستنهض أى مشروع وحدوى الهمم بقدر ما يثير الضغائن؟ هل لا زالـت إرادتنـا مكبلة لصالح غيرنا؟ رغم الاستغلال القانونى كل هذه التجارب لم تدرس حتى الآن إلا من الزاويتين الأخلاقية والعاطفية.

أما من الناحية العملية فلا تزال غامضة لدى الكثير من فئات شـعبنا. مرحلـة مظلمة لا يزال يسودها الغموض وتكتنفها الأزمات وتتشابك فيها الخيوط وتقضى إلـى

عقد مستعصية تصل بجذورها إلى عمق التاريخ وتمتد بفروعها عبـــر الماضى القريب وتلتقى بظلالها على الواقع. لكن ما هى الثمار التى ستحصدها أجيالنا فى المستقبل؟ الله أعلم!